﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾ [الدُّخان: 9 - 12]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

يَعظُم المشهد بعِظَم أهواله، وتقلُّب صوره وتغيُّر أحواله

لمّا جاء ذكر اليوم الذي يرجع فيه النّاس لربِّ العالمين في أواخر حم الزخرف فقال سبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۝٨٣﴾ [الزخرف: 83]، ولم يُذكر يومٌ معيَّنٌ، ولم يُذكر وصفه كذلك، وكان أكثرهم منكرًا لما لزمه القطع به، أخبر ﷻ بأن قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾، ليُبَيِّنَ: أنَّهُم غير موقنين بحقيقة ما يُخْبَرونَ به من هذه الأخبار، ثمّ بيَّن سبحانه بعض صفات ذلك اليوم متوعِّدًا بذلك المنكرين المستهزئين، فقال: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾[1]، ولمّا كان من المعلوم أنَّهم يقولون عند إتيانه جريًا على عادة جهلهم: ما هذا؟ أجيبوا: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ولمّا انحلّت عُرى تلك العزائم، ووهت تلك القوى من كل عازم، وسفلت بعد العلوِّ تلك الشوامخ من الهمم مدَّعين أنَّهم لغاية الإذعان من أهل القرب والرضوان: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾ ثمَّ علَّلوا ذلك بما علموا أنه الموجب كشفه، فقالوا مؤكدين لما لحالهم من المنافاة لخبرهم ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَارْتَقِبْ﴾: أصل (رقب) يدلُّ على انتصاب لمراعاة شيء[3]،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 396، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 14.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 15 - 16.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رقب).

ورَقَبْتُه: حفظته، والرَّقيب: الحافظ، وحارس القوم؛ وذلك إما لمراعاته رَقَبَة المحفوظ، وإما رفعه رَقَبَتَه، والرَّقيب: المنتظِر، تقول رَقَبْتُ الشَّيء أرقُبه رُقوبًا ورِقبة ورِقبانًا: إذا رصدته[1]، والمَرقَب والمَرقبة: المكان الذي يُشرِف عليه الرَّقيب، وترقَّب: احترز راقِبًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 21]: ينتظر ويتوقَّع ماذا يكون[2]، والتَّرقُّب: الانتظار للشَّيء وتوقُّعه، وكذلك الارتقاب[3]، وترقَّبه وارتقبه: انتظره ورصده، وراقب اللّهَ في أمره: خافه[4]، وقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: انتظر[5].

2) ﴿بِدُخَانٍ﴾: أصل (دخن) يدلُّ على ما يكون عن الوقود، ثم يكون فيه كدرة إلى السواد ونحوه[6]، فالدُّخان: المستصحَب للَّهيب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: 11][7]، وجمعه: أدخِنَة ودَواخِن، ودخَنَتِ النّار تدخِن وتدخُن: كثر دخانها وارتفع، ودَخِنَتِ النّار تدخَن: إذا ألقيت عليها حطبا، وأفسدتها حتى يهيج لذلك دخان يشتدُّ[8]، وقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بجدَب بيِّن، يقال إنَّ الجائع كان يرى بينه وبين السَّماء دخانا من شدَّة الجوع؛ لأنَّ الأرض قد أجدبت وأصابت قريشًا مجاعة[9].

3) ﴿يَغْشَى﴾: أصل (غشي) يدلُّ على تغطية شيء بشيء[10]، وغَشِيَه غِشاوة وغِشاء: أتاه ما قد غشيه، أي: ستره، والغِشاوة والغِشاء: ما يغطَّى به الشَّيءُ من غطاء ونحوه، وغشَّيتُ الشيءَ تغشية: غطَّيته، واستغشى بثوبه، وتغشَّى بثوبه: تغطَّى به كي لا يسمع ولا يرى[11]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: 7]؛ أي: تغطَّوا بها حتى لا يروا بأعينهم

(1) الجوهري، الصحاح: (رقب).
(2) الراغب، المفردات: (رقب).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رقب).
(4) الخليل، العين: (رقب).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رقب).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (دخن).
(7) الراغب، المفردات: (دخن).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (دخن).
(9) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 656، وابن منظور، لسان العرب: (دخن).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشي).
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غشي).

الدّاعي، ولا يصغوا إلى كلامه، والغِشيان والغاشية: كل ما يغطِّي الشَّيءَ[1]، وقوله تعالى: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: يشملهم ويحيط بهم[2].

4) ﴿ٱكْشِفْ﴾: أصل (كشف) يدلُّ على سَرْوٍ وإزالة الغطاء ونحوه عن الشَّيء[3]، والكشف: رفعك شيئا عما يواريه ويغطِّيه[4]، وكَشَفْتُ الثَّوب عن الوجه وغيره أكشِفه كشفًا، وكشَّفه فانكشف وتكشَّف، ويقال: كشف غمَّه، ويقال: تكشَّف البرق، إذا ملأ السَّماء[5]، ومعنى اكشف هنا: ارفع عنا العذاب وأزلهُ عنّا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تهديد الله للمشركين بالعذاب فيه كبير عظة وعبرة لأولي الألباب

يخبر المولى ﷻ في هذه الآيات عن حال هؤلاء المشركين تجاه الخطاب القرآنيِّ المرشد إلى طريق الحقِّ والهداية فَيُبَيِّنُ: أنَّهُم غير موقنين بحقيقة ما يُخْبَرونَ به من هذه الأخبار، فهم في شكٍّ من القرآن قد اشتغلوا عنه باللَّعِب الباطل الَّذي لا يجدي عليهم إلا الضَّرَرَ، وإذا كان الحال كذلك أيُّها الرَّسولُ الكريمُ، فانتظر بهؤلاء المشركين من قومك يومًا عصيبًا تأتي فيه السَّماءُ بدخان ظاهر واضح يُغطِّي النّاسَ ويَعُمُّهُم، فيقولون لشدَّةِ الهَوْلِ: هذا عذابٌ موجِعٌ مؤلم، فيستغيثون قائلين: ربَّنا ارفعْ عنّا العذاب؛ فإنّا مؤمنون بك وبنبيِّك إنْ كشفته عنّا[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة فصل الآية عن سابقتها:

الخوض في الباطل، واللهو عن الحقّ أمارةُ خلوّ الإيمان واليقين

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ هو جواب قوله: ﴿إِن كُنتُم

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غشي).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 657، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 5/ 100.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كشف).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كشف).
(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (كشف).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 13 - 22، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 771.

مُّوقِنِينَ﴾، فكأنَّه قال: لا يوقنون، ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾؛ يعني: يخوضون في الباطل[1]، فهو استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر بعد قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وهذا السُّؤال هو: فماذا كان منهم؟ هل آمنوا وأيقنوا؟ فجاء الجواب: لم يؤمنوا ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

دلالة استفتاح الآية بحرف الإضراب ﴿بَلْ﴾:

في معنى ما تفيده ﴿بَلْ﴾ قولان:

الإيقان يستتبع قبول البرهان

أحدهما: أنَّه إضراب إبطاليٌّ، أبطل به إيقانهم لعدم جريهم على موجبه[2]؛ لأنَّهم لو كانوا موقنين حقًّا بذلك لأخلصوا لله تعالى العبادةَ والطّاعة، فيكون المعنى: إنَّ هؤلاء الكُفّار لم يكونوا موقنين بأنَّ ربَّ السَّماوات والأرض وما بينهما هو الله، بل قالوا ما قالوا في ذلك على سبيل الشَّكِّ واللَّعب[3]، فـ"هو كالعدم؛ لأنَّهم خلطوه بالشَّكِّ واللَّعب، فارتفعت عنه خاصيَّة اليقين والإقرار التي هي الجري على موجب العِلم، فإنَّ العِلم إذا لم يجْرِ صاحبُه على العمل به وتجديد ملاحظته تطرَّق إليه الذُّهول، ثمَّ النِّسيان، فضعفَ حتَّى صار شكًّا لانحجاب الأدلَّة التي يرسخ بها في النَّفس؛ أي: هم شاكّون في وحدانيَّة الله تعالى"[4]، و" ليسوا بموقنين في إقرارهم بربوبيَّته؛ لأنَّ الإيقان يستتبع قبول البرهان، وإنَّما قولهم في الإيمان هو قولٌ ممزوج بلَعِب، لغشيانِ أدخنةِ أهويةِ نفوسِهم بصائرَ قلوبِهم وأرواحهم"[5].

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 268.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 4، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 272، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 654، وطنطاوي، الوسيط: 13/ 118.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 408.

فهو إضراب قبله نفيٌ مقدَّر، كأنَّه يقول: ليس هؤلاء ممَّن يؤمِن ولا ممَّن يتبع وصاة، ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ في أقوالهم وأعمالهم[1].

والقول الآخر في معنى ما تفيده ﴿بَلْ﴾: هو أنَّها للإضراب الانتقاليِّ؛ لأنَّ الكلام بها انتقل مِن بابٍ مِن أبواب المعاني إلى باب آخر[2].

نكتة تقديم الضمير ﴿هُمْ﴾:

قُدِّم الضمير ﴿هُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ لتمكين الخبر في ذهن السّامع عن طريق التَّشويق له؛ لأنَّ هذا مِن شأنه أن يلفت الانتباه إلى أنَّ هؤلاء سيُذكرون بأمرٍ مهمٍّ، فتستشرف النَّفس إلى معرفة ذلك، وتستيقظ، وتلتفت، فيصادفها حرفُ الظَّرف الدّاخل على الشَّكِّ، وأنَّ هؤلاء ليسوا شاكِّين فحسب، وإنَّما هم داخلون في الشَّكِّ وكائنون فيه فهو يغشاهم ويحيطهم[3].

تمكين الخبر في ذهن السّامعين، وتأكيد نسبة الشَّكِّ إلى المعاندين

نكتة التَّعبير بالضَّمير المنفصل ﴿هُمْ﴾:

أفاد الضَّمير المنفصل ﴿هُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ معنى: التَّوكيد[4]، والمقصود به: مشركو قريش[5]؛ إذ المعنى: بل هؤلاء المشركون في ﴿شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: قد جاءهم اليقين، وهم يشُكّون فيه ويمترون، ويُعرِضون ولا يصدقون[6].

هؤلاء القرشيّون المشركون في شكٍّ يمترون ولا يوقنون

ذلك أنَّ هذه الآيات جاءت معقِّبة على مطلع السّورة، ومع أنَّه لم يسبق كلامٌ عن أحدٍ فالمتبادَر مِن نصِّ الآيات أنَّ الضَّمير الغائب عائد إلى الكُفّار[7].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 69، والعليمي، فتح الرحمن: 6/ 245.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 582، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 119، والهلال، الثري الجامع: 10/ 421.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 583.
(4) الهلال، الثري الجامع: 10/ 421.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 12، ومأمون حموش، التفسير المأمون: 7/ 223.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 246.
(7) محمد دروزة، التفسير الحديث: 4/ 538.

معنى ﴿فِي﴾:

المشركون في الشَّكِّ غارقون، وهم في ريبهم يتردَّدون

الأصل في معنى ﴿فِي﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[1]، وهذا هو المراد في قوله تعالى: ﴿هُمْ فِي شَكٍّ﴾، فالإتيان بحرف الظَّرفيَّة كان لأجل الدَّلالة على شدَّة تمكُّن الشَّكِّ من نفوسهم حتَّى كأنَّه ظرفٌ محيطٌ بهم لا يجدون عنه مخرجًا؛ أي: لا يفارقهم الشَّكُّ، فالظَّرفيَّة استعارةٌ تبعيَّة مثل الاستعلاء في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5][2]، والمعنى: هم منغمرون في الشُّكوك والشُّبهات، غافلون عمّا خُلقوا له، قد اشتغلوا باللَّعب الباطل الذي لا يُجدِي عليهم إلا الضَّرر[3]، وهذا أبلغ من (يشكّون)؛ إذ إنَّ قوله: ﴿فِي شَكٍّ﴾ قد جعل الشَّكَّ ظرفًا لهم مجازًا، وقُيِّد بأنَّهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾[4].

دلالة تنكير ﴿شَكٍّ﴾:

المشركون منغمرون في شكٍّ عظيم، وجُرم أثيم

أوثر تنكير ﴿شَكٍّ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمْ فِي شَكٍّ﴾ لإفادة التَّعظيم؛ أي: هؤلاء الكافرون في" شكٍّ عظيم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ لا يقولون ما يقولون ممّا هو مطابق لنفي الأمر عن جِدٍّ وإذعان، بل يقولونه مخلوطًا بهزء"[5].

نكتة التَّعبير بالفعل ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ودلالة مجيئه مضارعًا:

يسمع المشركون القرآن سماع اللّاعب المرتاب، الغارق في الشَّكِّ والاضطراب

اللَّعب فعلٌ يجرى على غير ترتيب تشبيهًا باللُّعاب الذي يسيل لا على نظام مخصوص[6].

وجملة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ في محلِّ رفع خبرٍ ثان للمبتدأ ﴿هُمْ﴾، ويجوز أن تكون هي الخبر، ويكون الظَّرف ﴿فِي شَكٍّ﴾ متعلِّقًا بالفعل، وقُدِّم رعايةً

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 772.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 375.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(6) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 381.

للفاصلة[1]، وعُبِّر بالمسند الفعليِّ ﴿يَلْعَبُونَ﴾ لتقوية الحكم وتوكيده، والسِّرُّ في إفادة التَّعبير بالمسند الفعليِّ تقويةَ الحُكم هو: تكرُّر الإسناد؛ لأنَّ الفعل ﴿يَلْعَبُونَ﴾ قد أُسنِد مرَّتين: مرَّة إلى المبتدأ ﴿هُمْ﴾، ومرَّة إلى الضَّمير المتَّصل، وهو واو الجماعة العائد أيضًا على المبتدأ ﴿هُمْ﴾، فهو بمثابة التَّعبير بجملة فعليَّة مكرَّرة، فيقوى الحكم ويثبت في الذِّهن[2].

وتجري هذه الصِّياغة في المقامات التي تدعو إلى التَّوكيد، والتَّقرير مثل ردِّ الدَّعوى التي يدَّعيها المخاطَب، وإرادة المتكلِّم تثبيت كلامه في نفوس المتلقِّين[3]، وهذا هو داعي التَّوكيد هنا، حيث ردَّ القرآن على المشركين ادِّعاءهم الإيمان مؤكِّدًا بأنَّ ذلك لم يكن عن يقين، بل هو قول قالوه بأفواههم، قد دنَّسه اللَّعب والهزء.

ويجوز أن تكون جملة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حالا مِن ضمير ﴿هُمْ﴾؛ أي: اشتغلوا عن النَّظر في الأدلَّة التي تُزيل الشَّكَّ عنهم وتجعلهم مهتدين - اشتغلوا عنها بالهزء واللَّعب في تلقِّي دعوة الرَّسول ﷺ، فكأنَّ انغماسَهم في الشَّكِّ مقارنٌ لحالهم مِن اللَّعب، ولهذه الجملة الحاليَّة موقعٌ عظيم؛ إذ بها أفيد أنَّ الشَّكَّ حاملٌ لهم على الهزء واللَّعب، وأنَّ الشُّغل باللَّعب يزيد الشَّكَّ فيهم رسوخًا بخلاف ما لو قيل: (بل هم في شكٍّ ولَعِب)[4].

وأمّا إيثار صيغة المضارعة فللدَّلالة على تجدُّد ذلك اللَّعب وحدوثه في كلِّ زمن يستقبلونه[5]؛ أي: يفعلون دائمًا فِعلَ التّارك لما هو فيه مِن أجَدِّ الجِدِّ الذي لا مِرية فيه، إلى اللَّعِب الذي لا فائدة فيه ولا ثمرة له[6]، فما يستمعون إليه إلّا استماع الأطفال الذين يشغلهم اللَّعب عن كل حديث فيه جِدٌّ[7]، فإنَّهم في شكٍّ لا يزالون فيه يلعبون، فإقرارهم ليس عن جدٍّ ولا تيقُّنٍ[8]، بل يسمعون سماع لاعب، ويقولون قول لاعب، ويقبلون قبول لاعب[9]!

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 115، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 10/ 494، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 119.
(2) حسن عبد الرازق، البلاغة الصافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.
(3) محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 220.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(5) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 583.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 12، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 581.
(7) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 188.
(8) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 399.
(9) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 122.

بلاغة الالتفات مِن الخطاب إلى الغيبة:

انصرف الكلام عنهم لمّا انصرفوا عن الجِدِّ إلى اللَّعب

في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ التفات إلى الغيبة ﴿هُمْ﴾ بعد الخطاب في ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وهذا الالتفات عن خطابهم إنَّما كان لفرط عنادهم وعدم التفاتهم، فبعَّدهم وطردهم[1]، والتفت عنهم تحقيرًا لشأنهم، وإعراضًا عنهم، وإبعادًا لهم عن موقف الخطاب، حين أفرطوا في العناد ولم يقبلوا رَسولَ مَن يقرّون أنَّه خالق السَّماوات والأرض وما بينهما، ولم يقبلوا كتابه؛ لكونهم مِن أهل الشَّكِّ والامتراء، وكون أفعالهم الهزء واللَّعب لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة، وعدم تمييزهم بين الحقِّ والباطل، والضّارِّ والنّافع[2].

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾:

حال القوم مِن اللَّعب والاضطراب يستوجب الوعيد بالعقاب

في معنى الفاء من قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ قولان؛ **أحدهما**: أنَّها التَّفريعيَّة، حيث رتَّبت جملة: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ على جملة: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ترتيب تفريع، فإنَّ كونَهم في شكٍّ ممّا يوجِب ذلك حَتْمًا؛ أي: فانتظر لهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[3]، وقد قُصِد من هذا التَّفريع وعد الرَّسول ﷺ بانتقام الله تعالى مِن مكذِّبيه، ووعيد المشركين على جحودهم بدلائل الوحدانيَّة وصدق الرَّسول ﷺ وعكوفهم على اللَّعب؛ أي: الاستهزاء بالقرآن والرَّسول ﷺ، وذكر له مخوِّفات للمشركين لإعدادهم للإيمان وبطشة انتقام مِن أئمتهم تستأصلهم[4].

والآخر: أنَّها الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر،

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 200، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 501.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 60، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 654، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.

تقديرُه: إذا عرفت حالهم هذا، وأردت بيان عاقبتهم، فأقول لك: انتظر يا أكمل الرُّسل لكفّار مكَّة ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾[1].

الغرض من الأمر في ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾، وتعيين المخاطب به:

الوعيد بالعقاب تثبيتٌ لخير البشر، وتخويف للكفّار مِن العذاب المنتَظَر

قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ معناه: فانتظرْ يا خير الرُّسل لمشركي قومِك يوم تأتيهم السَّماء من البلاء الذي يحلُّ بهم على كفرهم بمثل الدُّخان المبين لَمن تأمَّله أنَّه دخان[2]، فالخطاب في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، والأمرُ مستعمَل في التَّثبيت[3]؛ تسلية للرَّسول ﷺ، وأمرًا له بالصَّبر حتى يحكم الله بينه وبين قومه[4].

وممّا زاد ذلك حسنًا كونُه واردًا على طريقة الالتفات مِن الغيبة في ﴿هُمۡ فِي شَكّٖ﴾ إلى الخطاب الرَّفيق: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾، فقابل إنزال الكتاب بإنزال العقاب مِن السَّماء، يعني: إنَّما أنزلنا الكتاب رحمة لهم، ولكنَّهم أعرضوا عنه، فانتظر إنزال العذاب عليهم[5]، وهذه الطَّريقة هي طريقة القرآن الكريم في توعُّد الكُفّار والتَّأنِّي بهم وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه، وتسلية الرَّسول الكريم ﷺ والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم[6].

دلالة التَّعبير بلفظ الارتقاب:

الارتقاب انتظار فيه تحفُّظ وترفُّع، ولا يكاد يقال إلّا في المكروه المتوقَّع

الارتقاب هو افتعال، مِن: رقبْته، إذا انتظرته وحرسته[7]، ولا يكاد يُقال ذلك إلّا في المكروه[8]، وقوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾؛ أي: انتظر بكلِّ جهد عاليًا عليهم، ناظرًا لأحوالهم نَظَرَ مَن هو حارسٌ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 121، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 349.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 19.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 285.
(4) طنطاوي، الوسيط: 13/ 119.
(5) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 200.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 772.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 13، والزمخشري، الكشاف: 4/ 272.
(8) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 656.

لها، متحفِّظًا مِن مِثلها، بهِمَّةٍ كهِمَّة الأسد الأرقب[1]؛ فإنَّ وعيدهم قد قرب زمانه، وآن أوانه[2].

ويجوز أن يكون معناه احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾، ولذلك سُمِّي الحافظ رقيبًا[3].

وفعل (ارْتَقِبْ) يقتضي بصريحه أنَّ إتيان السَّماء بدخان لم يكن حاصلًا في نزول هذه الآية، ويقتضي كناية عن اقتراب وقوعه كما يرتقب الجائي من مكان قريب[4]، فهو افتعال وراءه احتشاد واحتفال واهتمام وتوقُّع، وهذا ظاهر مِن أنَّ رسول الله ﷺ قد بلغ منه الأسى والأسف مِن قومه ما بلغ[5].

تعيين مفعول ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾:

يوم مجيء الوعيد واقعٌ مرتقَب

قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾؛ أي: فانتظر، ويقال ذلك في المكروه، والمعنى: انتظر يا خير الرُّسل عذابَهم، فحذف مفعول الارتقاب لدلالة ما ذُكِر بعدَه عليه، وهو قوله: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، ويجوز أن يكون مفعول الارتقاب هو قوله: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾[6]، ويصحّ كون فعل الارتقاب متعديًّا، ولكنَّه قُصِر تهويلًا لذهاب الوهم في مفعوله كلَّ مذهب[7].

دلالة التَّعبير بـ ﴿يَوۡمَ﴾، وتوجيه نصبه:

يوم العقاب وما يقع فيه من حوادث جليَّة من أشدّ الأهوال

أطلق اليوم على الزَّمان في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾، فإنَّ ظهور الدُّخان كان في أيّام وشهور كثيرة[8]، فالمراد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 12، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 582.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 772.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 247، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 130.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 285.
(5) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 584.
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 98، والزمخشري، الكشاف: 4/ 272.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 13.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 286.

باليوم: مطلق الزمان، وما فيه مِن حوادث[1]، ويجوز في نصب ﴿يَوۡمَ﴾[2]: على أنّه مفعولٌ به لـ ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾؛ أي: فارتقِب يومًا؛ أي: فانتظرْه، فاليوم مرتَقَب، وليس بمرتقَبٍ فيه[3]، ويجوز النصب على أنّه ظرفٌ له، ومفعوله محذوف، وهو النِّقمة أو العذاب، وما أشبه ذلك؛ أي: ارتقب وعد الله في ذلك اليوم.

معنى التعريف في ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ ودلالة إفرادها:

المقصود بالسَّماء في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ هو: جهة العلوِّ[4]، وهو المعنى اللُّغويُّ للسَّماء[5]، وفيه دلالة ظاهرة على أنَّ العذاب الذي تأتي به السَّماء في صورة دخان مستعلٍ عليهم متمكِّنٌ منهم، قاهرٌ لهم، لا سبيل لهم إلى دفعه ولا إلى مقاومته، وأنَّه مِن قوَّة علويَّة لا تُقهر[6].

عـذابٌ مُـنـزّلٌ من الملك القهار عـظـيـم الـشـأن دقيق الأسرار

بلاغة المجاز العقليّ في ﴿تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ﴾:

إسناد الإتيان بالدُّخان المبين إلى السَّماء مِن قبيل الإسناد إلى السَّبب (وهذا على تأويل الدُّخان بالقحط كما سيأتي بيانه)؛ فالسَّماء لا تأتي بالقحط والمجاعة، وإنَّما يحصل القحط والمجاعة بعدم إمطار السَّماء فإسناد إتيانهما إليها مِن قَبيل إسناد الحكم إلى سببه[7].

مـن الأدب مع الـلـه سبحانه نسبةُ كـلِّ خير إلى تـقـديـره وفـعـالـه، وتنزيهه عمّا لا يليق بجلاله

وإنَّما لم يُسند إلى الله ﷻ مع أنَّه سبحانه الفاعل حقيقة؛ ليكون

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 4، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 376، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 116.

(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1145، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 572، والسمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 619، وابن عادل، اللباب: 17/ 314، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 10/ 494.

(3) السخاوي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 315، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 286.

(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 4، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 116.

(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 376.

(6) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 585.

(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 100، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 5، والبروسوي، روح البيان: 8/ 406، والجمل، حاشية على الجلالين: 7/ 118.

الكلام مع سابقه المتضمِّن إسناد ما هو رحمة إليه تعالى شأنُه، على وزان قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 7]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: 10][1].

ويجوز أن تكون عَلاقة هذا المجاز هي المكانيَّة (على تأويل الدُّخان بأنَّه المعدود مِن أشراط السّاعة)؛ لأنَّ السَّماء مكانه حين يتصاعد في جو السَّماء أو حين يلوح للأنظار منها[2].

ولمّا كان القوم في مقام الجِدِّ لاعبين؛ اشتدَّ غضب الله تعالى عليهم، واتَّسع فصارت السَّماء مِن جند الله، وصار الدُّخان مِن جند الله، فأرسلتِ السَّماءُ عذابها وصبَّته على أعداء الله، وهذا هول آخر عظيم[3]!

معنى الباء في ﴿بِدُخَانٍ﴾:

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[4]، وهو بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، فكأنَّ السَّماء جاءت بهذا الدُّخان ملتصِقةً به، والباء لتعدية فعل المجيء إلى الدُّخان[5].

نكتة تنكير (دُخانٍ) ودلالة وصفه بـ ﴿مُّبِينٍ﴾:

أوثر تنكير (دُخانٍ) لإفادة التَّعظيم والتَّهويل، والمبين: البيِّن الظّاهر، وهو اسم فاعل مِن (أبان) الذي هو بمعنى (بان)، والمعنى: أنَّه ظاهرٌ حالُه لكلِّ أحد، فلا يشُكُّ أحدٌ في رؤيته، ولا في

جلاء الدُّخان يكشف ما وراءه من أهوال، ويُبين عمّا يلابسه مِن أحوال

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 200، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 116.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 286.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 585.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.
(5) البروسوي، روح البيان: 8/ 406، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 349، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 120.

أنَّه دخان[1]، فيراه النّاس جميعًا، ويحسّونه بحواسِّهم، ويشعرون به شعورًا جليًّا[2].

وإيثار كلمة ﴿مُّبِينٍ﴾ على (بيِّن) للدَّلالة على أنَّ الدُّخان يُبِين ويكشف ما وراءه مِن أهوال وأحوال[3].

معنى الدخان بين الحقيقة والمجاز:

شـدّة الجـوع تـهـيّء للجائع الظلمة دخانًا

تعددتِ التوجيهات في معنى الدُّخان بين أنّه ما أصاب قريشًا حين دعا رسولُ الله ﷺ ربَّه ﷻ على قريش أن يأخذهم بسنين كسِنِي يوسف، فأُخِذوا بالمجاعَة، وأصيبوا في أبصارهم مِن شدَّة الجوع مِن الظُّلمة كهيئة الدُّخان وليس به، والحديث في صحيح البخاريِّ ومسلم[4]، ويقتضي هذا صرفَ اللَّفظ عن حقيقته إلى المجاز[5]؛ لأنَّ مردَّه إلى ما يتوهَّمه الجائع كهيئة الدُّخان مِن شدَّة الجهد، فهو تشبيه بليغ؛ أي: بمِثل دخان[6]، أو أنَّ إطلاق الدُّخان على ذلك المرئيِّ وإرادة الجدب والمجاعة منه مجازٌ مرسَل مِن باب ذِكر المسبَّب وإرادة السَّبب[7]، أو يكون ذلك تمثيلًا لهيئة ما يراه الجائعون مِن شِبه الغشاوة على أبصارهم حين ينظرون في الجوِّ بهيئة الدُّخان النّازل مِن الأفق، فالمجاز في التَّركيب، وأمّا مفردات التَّركيب فهي مستعمَلَة في حقائقها؛ لأنَّ مِن معاني السَّماء في كلام العرب قبَّةُ الجوِّ، وتكون جملة: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ ترشيحًا للتَّمثيليَّة؛

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 273، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 657، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 249، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 286.

(2) طنطاوي، الوسيط: 13/ 121.

(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 585.

(4) ذكره البخاري في مواضع من صحيحه بأرقام: (1007، و1020، و4693، و4774، و4809، و4822، و4823، و4824)، في كتابي: الاستسقاء والتفسير، ومسلم برقم: (2798) في كتاب صفة القيامة، باب الدخان.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 657.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 286.

(7) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 116 - 117.

لأنَّ الذي يغشاهم هو الظُّلمة التي في أبصارهم مِن الجوع، وليس الدُّخان هو الذي يغشاهم[1].

أو أنَّه مِن أشراط السّاعة، التي لم تقع بعد، وفيه يمكث الدّخان في الأرض أربعين يومًا يملأ ما بين السَّماء والأرض، فأمّا المؤمِن فيصيبه مثل الزُّكام، وأمّا الكافر والفاجر فيدخل في أنوفهم فيثقب مسامعهم، ويضيِّق أنفاسهم، وهو مِن آثار جهنَّم يوم القيامة، أو أنَّه يوم فتح مكَّة لما حجبت السَّماءَ الغبرةُ[2]، وفيهما يكون معنى الدُّخان على حقيقته، لكنَّ الإسناد إلى السَّماء مجاز[3]، ووجه اجتماع جَعْل الدُّخان قبل يوم القيامة مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾ ؟ فالجواب: إذا جاء الدُّخان ضجَّ المؤمنون والكافرون وسألوا الله الرَّحمة والعفو، فيكشف عنهم، فيعودون لما كانوا عليه[4].

المؤمن من الدّخان في أمان دائم قبل قيام السّاعة وبعدها

وعلى هذا فالدُّخان يحتمل المعنيين[5]، فإنَّه غير منكَر أن يكون أحلَّ بالكفّار الذين توعَّدهم بهذا الوعيد ما توعَّدهم، ويكون مُحِلًّا فيما يستأنف بعدُ بآخرين دخانًا على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ عندنا كذلك، لأنَّ الأخبار عن رسول الله ﷺ قد تظاهرت بأنَّ ذلك كائنٌ، فكلا الخبرين اللَّذين رويا عن رسول الله ﷺ صحيح[6]، ومتى نزَّلت هذه الآيات على هذين المعنيين لم تجد في اللَّفظ ما يمنع مِن ذلك، بل تجدها مطابقة لهما أتمَّ المطابَقَة[7].

هول العقاب بالدّخان عظيم وقعتِ العقوبة أم لم تقع

فالحاصل أنَّه لا منافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدُّخان الذي كان يتراءى لقريش مِن الجوع، وبين كون الدُّخان مِن آيات السّاعة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 288.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 13 - 19، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن 16/ 130 - 131.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 377.
(4) السخاوي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 316.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 100.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 19.
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 773.

وعلاماتها وأشراطها[1]؛ إذ يمكن الجمع بين الحديثين والقول: إنَّ كليهما صحيح، فذلك دخانٌ قد حدث زمن الرَّسول ﷺ وكان يشبه الدُّخان مِن شدَّة الفقر والمجاعة، ودخان آخر قادم مِن أشراط السّاعة[2].

بلاغة الكناية في لفظ الدّخان:

الجدبُ ظلمة للجوّ وأذى للنفس

قد يقال للجوع والقحط: الدُّخان؛ ليُبَس الأرض في سنة الجدب، وارتفاع الغبار بسبب قلَّة الأمطار، ولهذا يقال لسنة الجدب: الغبراء[3]، فإطلاق الدُّخان على شدَّة القحط وغلبة الجوع على سبيل الكناية؛ لأنَّ في عام القحط يظلم الجوُّ لقلَّة الأمطار وكثرة الغبار؛ ولذا يقال لسنة القحط: السَّنة الغبراء، كما قالوا: عام الرَّمادة[4]، وكان بعض العرب يسمّون الشَّرَّ الغالب دخانًا، ووُجِّه ذلك بأنَّ الدُّخان ممّا يُتأذَّى به، فأُطلق على كلِّ مؤذٍ يشبهه، وأريد به هنا: الجدب[5].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾:

قوله تعالى: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ في موضع جرٍّ، مِن صفة قوله: ﴿بِدُخَانٖ﴾[6]؛ أي: بدخانٍ مُبينٍ غاشٍ[7]، وعلى هذا فبين الجملتين كمال اتِّصال، وهو مِن علل الفصل.

توجيه قوله تعالى: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

لا ينجو مِن عذاب الله إلّا مَن رحم

معنى قوله تعالى: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ أنَّه يحيط بهم ويعمُّهم كما تحيط الغاشية بالجسد؛ أي: لا ينجو منه أحد مِن أولئك النّاس وهم

(1) القنوجي، فتح البيان: 12/ 393.
(2) الهلال، الثري الجامع: 10/ 422.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 132.
(4) البروسوي، روح البيان: 8/ 406.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 116 - 117.
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 100، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 657، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 572.
(7) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 619.

المشركون، فإنْ كان المراد مِن الدُّخان ما أصاب أبصارهم مِن رؤية مثلِ الغبرة مِن الجوع فالغشيان مجاز، وإن كان المراد منه غبار الحرب يوم الفتح فالغشيان حقيقة أو مجاز مشهور، ويجوز أن يكون غبارًا متصاعدًا في الجوِّ مِن شدَّة الجفاف[1].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَغۡشَى﴾:

استحضار صورة الغشيان عظة لكلّ انسان

أوثر التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ لاستحضار الصّورة وكأنَّها مشاهَدَة رأي العين، تملؤها الحياة والحركة، أو لمناسبة قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾، فإنَّ المضارع يدلُّ على الحال والاستقبال.

معنى التَّعريف في ﴿ٱلنَّاسَۖ﴾:

النّاس هم كفّار أهـل مـكّـة، أو من أدركوا وقت الاشراط، أو هم عامّة أهل الأرض

في المراد بالنّاس ثلاثة أقوال حسبما تقدَّم في تأويل معنى الدُّخان[2]: فإنْ كان الدُّخان هو الجوع والقحط الذي رأتْه قريشٌ، فـ﴿ٱلنَّاسَۖ﴾ خاصٌّ بالكفّار مِن أهل مكَّة، وكشفه اللّه تعالى عنهم بدعاء النَّبيِّ ﷺ، وإنْ كان الدُّخان مِن أشراط السّاعة، فـ﴿ٱلنَّاسَۖ﴾ عامٌّ فيمن أدركه وقتُ الأشراط، ومن جعل ذلك يومَ القيامة فـ﴿ٱلنَّاسَۖ﴾ عامٌّ على أهل الأرض وقتئذ، وإنْ كان الدُّخان هو ما أثارته الخيل مِن الغبار يوم فتح مكَّة فالمراد بـ﴿ٱلنَّاسَۖ﴾ مَن حضروه.

الـدّخـان عقاب يـصـيـب جميع المشركين الذين يشهدونه

ويجوز ان يكون التَّعريف للعهد، والمراد بالنّاس مِن قوله: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ هم المشركون الذين كفروا وكذَّبوا، كما هو الغالب في إطلاق لفظ ﴿ٱلنَّاسَۖ﴾ في القرآن، وأنَّه يكشف زمنًا قليلًا عنهم إعذارًا لهم لعلَّهم يؤمنون، وأنَّهم يعودون بعد كشفه إلى ما كانوا عليه، فإنَّ الكلام يؤذن بأنَّ هذا الدُّخان المرتَقَب حادث قريب الحصول،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 289.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 100، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 399، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 117، والصاوي، حاشية على الجلالين: 4/ 61.

فالظّاهر أنَّه حدث يكون في الحياة الدُّنيا، وأنَّه عقاب للمشركين لا ينجو منه أحدٌ منهم[1].

علَّة فصل قوله تعالى ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

الإخبار عن العذاب بأنه أليم وصفٌ لحالهم في الجحيم

فصل قوله: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر، ذلك أنَّه لمّا كان مِن المعلوم أنَّهم يقولون عند إتيانه - جريًا على عادة جهلهم -: ما هذا؟ أُجيبوا بقوله تعالى - حكاية عن لسان الحال، أو قول بعضهم أو بعض أولياء الله -: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]، ويجوز أن يكون قوله: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في محلِّ نصب بالقول، وذلك القول حالٌ؛ أي: قائلين ذلك، ويجوز أن لا يكون معمولًا لقول البتَّة، بل هو مجرَّد إخبار[3]؛ فلأجل ذلك فُصِل.

تعيين القائل: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

القول للمشركين تألُّمًا، أو لله تعالى تعجيبًا، و تبكيتًا

اختُلِف في تعيين قائل هذا القول[4]: فإمّا أنَّهم الكافرون الذين غشيهم العذاب؛ يعني: أنَّهم يقولون ممّا نالهم مِن ذلك الكرب والجهد: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهو الموجِع، وترك مِن الكلام (يقولون) استغناء بمعرفة السّامعين معناه مِن ذِكرها، ويؤيِّد هذا التَّأويل سياقُهُ حكايةً عنهم أنَّهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾.

أو أنَّه من قول الله تعالى لهم تعجيبًا منه سبحانه على نحوٍ مِن قوله تعالى لمّا وصف قصَّة الذَّبح: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾ [الصافات: 106]؛ أي: يقول الله لهم: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أو يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطور: 13 - 14].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 286 - 289.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 14، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 582.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 619.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 19، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 70، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 657، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 132، وابن كثير تفسير القرآن العظيم: 7/ 250، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 289.

وعلى أيٍّ مِن هذه التَّأويلات فقد حُذف القول للمبادرة بهذه الجملة التي هي قلب هذا الموقف؛ لأنها تحدِّثهم عن ما أصابهم منه وكيف كانت شدَّةُ الإصابة ملجئةً لهم إلى هذا القول وما بعده[1].

دلالة تقديم المسند إليه، وإظهاره معرّفًا بالإشارة:

الحاضرُ المُشاهَدُ مـهـولٌ أمـرهُ، مفخّمٌ شأنُه

قُدِّم المسند إليه في قوله تعالى: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ليتمكَّن الخبر في نفس السّامع أشدَّ تمكُّن، كما أنَّ هذه الإشارة ميَّزت المشار إليه أكمل تمييز ليقع الخبر بعده فيسند إليه بعد هذا التَّمييز[2].

والإشارة في ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى الدُّخان المذكور آنفًا، عُدِل عن استحضاره بالإضمار وأن يقال: هو عذاب أليم، إلى استحضاره بالإشارة، لتنزيله منزلة الحاضر المشاهَد تهويلًا لأمره، وتفخيمًا لشأنه؛ وتقريبًا له، كقولك: هذا الشِّتاء قادم فأعدَّ له[3].

نكتة تنكير ﴿عَذَابٌ﴾، ودلالة وصفه بـ ﴿أَلِيمٌ﴾:

عـذاب المشركين مـهـول، شـديـدٌ ألمه بيّنٌ أثره

أوثر تنكيرُ كلمة ﴿عَذَابٌ﴾ للتَّعظيم والتَّهويل؛ أي: هو عذاب عظيمٌ لا يُدرَك كنهه، وقد زاد من تهويله والتخويف منه وصفه بأنَّه ﴿أَلِيمٌ﴾؛ أي: شديدٌ ألمُه، وعظيم هولُه[4].

سرُّ إيثار التَّعبير بالأليم دون غيره:

الأليم هو الذي يخلص وجعه إلى القلب

قوله تعالى: ﴿أَلِيمٌ﴾؛ أي: يخلص وجعُه إلى القلب فيبلغ في ألمه بما كنتم تؤلمون دعاتِكم إلى الله بردِّ مقولهم، والاستخفاف باغتراركم بكثرة العدد والقوَّة والمدد[5]، فكان الجزاء مِن جنس العمل، ولِما سبق مِن تأويله بالجوع الشَّديد، أو الدُّخان الذي يأتي بين يدي القيامة، فهذان يشتركان في الألم والإيجاع البدنيِّ، وإن

(1) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 588.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 588.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 117، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 289.
(4) طنطاوي، الوسيط: 13/ 121، والإبياري، الموسوعة القرآنية: 11/ 164.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 14، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 582.

كان ما حدث عند فتح مكَّة فهو إيجاع نفسيٌّ شديد لنفوس الذين استكبروا على الإيمان فأبوا الخضوع للواحد الديّان، فدُخلت عليهم مكَّة، وهُدِمت فيها الأصنام، وأقيم فيها الدِّين، وأذَّن فيها بلال ﷺ.

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾:

حين تخور القوى، ويفتر العزم تحضر عبارات الندم

فُصِل قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ عن سابقه كونه استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤال مقدَّر، فكأنَّه قيل: فما قالوا حين تحقَّقوا ذلك؟ قيل: قالوا - وقد انحلَّت عرى تلك العزائم، ووهت تلك القوى من كل عازم -: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾[1].

بلاغة الإيجاز بحذف فعل القول، وأداة النِّداء:

شدّة الإلجاء الى التَّضرُّع توجز الألفاظ، وتختصر المسافات

قوله: ﴿رَّبَّنَا﴾ منادَى منصوب بأداة نداء محذوفة اختصارًا اكتفاءً بالمنادَى[2]، وإنَّما ألجأهم الألم فتضرَّعوا ونادوا ربَّهم فحذفوا حرف النِّداء؛ لأنَّ حالهم مِن الشِّدَّة والجهد لا تعينهم إلّا على هذ الإيجاز الشَّديد[3].

فهذه الجملة مقول قول محذوف، وحملها جميع المفسِّرين على أنَّها حكاية قول الذين يغشاهم العذاب بتقدير: يقولون: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾؛ أي: هو وعد صادر مِن النّاس الذين يغشاهم العذاب بأنَّهم يؤمنون إنْ كُشِف عنهم العذاب.

من هدايات ربّ العالمين تعليم المسلمين الاستعاذة بالله مِن أن يصيبهم العذاب المبين

وممّا تسمح به تراكيب الآية وسياقها أن يكون القول المحذوف مقدَّرًا بفعل أمر؛ أي: (قولوا)، وذلك لتلقين المسلمين أن يستعيذوا باللّه مِن أن يصيبهم ذلك العذاب إذ كانوا والمشركين في بلد واحد كما استعاذ موسى ﷺ بقوله: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: 155]، وفيه إيماء إلى أنَّ اللّه سيُخرج المؤمنين مِن مكَّة قبل أن يحلَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 14، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 582.
(2) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 10/ 495.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 589.

بأهلها هذا العذاب، فهذا التَّلقين كالذي في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: 286] الآيات[1].

بلاغة الاستعارة في ﴿ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾:

تصوير العذاب بالكساء المحيط بصاحبه للمبالغة في شدَّته

قوله: ﴿ٱكۡشِفۡ عَنَّا﴾ فيها فرط إحساس باستيلاء العذاب وضغطه عليهم وإحاطته بهم وكأنَّه ألبسهم وغطّاهم[2]، فشبَّه العذاب بالغطاء بجامع الإحاطة والشُّمول، ثمَّ حذف المشبَّه به وجاء بشيء من لوازمه، وهو قوله: ﴿ٱكۡشِفۡ﴾ على سبيل الاستعارة المكنيَّة التَّبعيَّة. "وظاهر مادَّة الكشف تقتضي إزالة شيء كان حاصلًا في شيء إلّا أنَّ الكشف هنا لمّا لم يكن مستعمَلًا في معناه الحقيقيِّ كان مجازه محتملًا أن يكون مستعمَلًا في منع حصول شيء يخشى حصوله كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98] فإنَّ قوم يونس لم يحلَّ بهم عذاب فزال عنهم، ولكنَّهم توُعِّدوا به فبادروا بالإيمان فتجّاهم الله منه"[3].

معنى (عَنْ):

سؤال المعذَّبين أن يُكشف عذابهم أو يبتعد عنهم

الأصل في معنى (عَنْ) أنَّه موضوع للدَّلالة على البُعد والمجاوَزة[4]، ومعنى الحرف في قوله: ﴿ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ أنَّ هؤلاء الكفّار سألوا الله أن يرفع عنهم العذاب، بحيث يكون العذاب مجاوزًا لهم، مبتعدًا عنهم.

نكتة تعريف ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾:

يختلف تأويل العذاب بحسب اختلاف الدُّخان وفاق ما ذُكرَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 290.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 589.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 290.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 385، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 500، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 54.

آنفًا؛ فإنْ قلنا: التَّقدير: يقولون: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾، فالعذاب هو: القحط الشَّديد، وإنْ قلنا: التَّقدير: يقولون: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ فالعذاب هو: الدُّخان المهلِك الذي يدخل في أسماع الكفرة حتى يصير رأسهم كالرَّأس الحنيذ المشويِّ[1].

مِن أقوى صور المبالغات الإخبار عن المعنى بالذّات

وسواء فُسِّر بالجوع أو الدُّخان فمآلهما واحد، فإنَّ الدُّخان إنَّما ينشأ مِن الجوع[2]، وهذا مِن الإخبار عن الذّات بالمعنى؛ لأنَّ الدُّخان محسوس، والعذاب معنى، وهذا مِن أقوى صور المبالغة[3].

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾:

من سبل دفع العذاب التعليلُ بسبل النجاة

فصل قوله: ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه تعليل لطلب دفع العذاب عنهم؛ أي إنّا متلبِّسون بما يدفع عنّا عذاب الكافرين[4]، فكأنَّهم قالوا: ربَّنا إن كشفت عنّا العذاب آمنّا، لكن عدلوا عنه إظهارًا لمزيد الرَّغبة[5]؛ أي: يقولون: اكشف عنّا العذاب فـ ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: نؤمن بك إنْ كشفته عنّا[6].

دلالة توالي المؤكِّدات في ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾:

تأكيد إيمان المُشركين؛ استرضاءٌ لربِّ العالمين

أُكِّدتْ فاصلةُ الآية بإنَّ، واسميَّة الجملة تأكيدًا لإيمانهم[7]؛ لأنَّ حالهم على عظيم المنافاة لخبرهم وكلامهم[8]، فـ "أسلوب الكلام جارٍ على أنَّ جملة: ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ تعليل لطلب كشف العذاب عنهم لما يقتضيه ظاهر استعمال حرف (إنَّ) مِن معنى الإخبار دون

(1) القنوجي، فتح البيان: 12/ 394، ونووي الجاوي، مراح لبيد: 2/ 393.
(2) البروسوي، روح البيان: 8/ 407، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 350.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 588.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 290.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 117.
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 132.
(7) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 560.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 15، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 582.

الوعد، ومن التَّعليل دون التَّأكيد، ولما يقتضيه اسم الفاعل في زمن الحال دون الاستقبال"[1].

نكتة حذف متعلَّق اسم الفاعل ﴿مُؤْمِنُونَ﴾:

تنزيل المتعدِّي منزلة اللّازم اهتمامًا بالفعل

قوله: ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: عريقون في وصف الإيمان، واصلون إلى رتبة الإيقان[2]، وقد حذف متعلَّقه لتنزيله منزلة اللّازم تأكيدًا لحصول الإيمان، وشمولًا لكلِّ ما يجب الإيمان به، فكأنَّهم قالوا: ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ بكلِّ ما أنزلت يا ربَّنا واتَّبعنا الرَّسول.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الارتقاب والتَّربُّص والانتظار:

الارتقابُ أخَصُّ من الانتظار بالحراسة، والتربُّصُ أخَصُّ من الانتظار بطول المدَّة

التّربُّص: طولُ الانتظار، والانتظارُ: يكون قصيرَ المدَّة وطويلَها؛ ومِن ثَمَّ يُسمَّى المتربِّص بالطَّعام وغيره متربِّصًا؛ لأنَّه يُطيل الانتظارَ لزيادة الرِّبح، وأصله من الرُّبْصة وهي التلبُّث يقال: ما لي على هذا الأمر رُبْصة، أي: تلبَّثَ في الانتظار حتّى طال[3]، وجذر الانتظار أصلٌ صحيحٌ يَرجِع فروعُه إلى معنى واحد وهو تأمُّل الشَّيء ومعاينتُه، ويقال: نظرتُه، أي: انتظرتُه، وهو ذلك القياس؛ كأنَّه ينظرُ إلى الوقتِ الذي يأتي فيه[4]، وعلى ما تقدَّمَ فإنَّ الانتظارَ مقرونٌ بما يقع فيه النَّظر[5]، أمّا الارتقاب: فجذره أصلٌ واحدٌ مطَّرِدٌ يدلُّ على انتصابٍ لمراعاةِ شيءٍ[6]، والارتقابُ انتظارٌ يدلُّ على قربِ وقوعِ المنتظَر كما يُرْتَقَبُ الجائي من مكان قريب[7]، ويقال:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 290.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 15، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 582.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 76.
(4) ابن فارس، المقاييس: (نظر).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 76.
(6) ابن فارس، المقاييس: (رقب).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 285.

ارتقِبْ في المكروه[1]، ويُزاد على معنى الانتظار الموجود في الارتقاب معنى الحراسة[2] وتبيَّنَ ممّا سبقَ أنَّ الارتقابَ أخَصُّ من الانتظار بالحراسة، والتربُّصَ أخَصُّ من الانتظار بطول المدَّة؛ لذا أوثِر لفظُ الارتقاب دون التربُّص والانتظار في قول الله ﷻ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾، أي: انتظِر بكلِّ جهدِك عاليًا عليهم ناظرًا لأحوالهم نَظرَ مَن هو حارسٌ لها، متحفِّظًا مِن مِثلها بهمَّةٍ كهمَّة الأسد الأرْقَب[3].

الدُّخان والغُبار والقَتَر:

يدلُّ الدُّخان على التهابِ النّار الظّاهِر في أصلِه ما يزيد الدَّلالةَ على شِدَّةِ العذاب وإيلامِه

جذرُ الدُّخان أصلٌ واحدٌ، وهو الذي يكون عنِ الوقود[4]، والدُّخان: ما يتصاعد عند إيقاد الحطب، أو ما يتصاعد من الوقود عند التهاب النار فيه[5]، والغُبارُ: ما يبقى من التراب المُثار، ومن الغُبار اشتقَّ الغبَرَة: وهو ما يَعلَق بالشَّيء من الغُبار وما كان على لونه[6]، وجذر القَتَر أصلٌ يدلُّ على تجميعٍ وتضييق[7]، والقَتَر من ذلك؛ لأنَّه لَونٌ هو غُبَرةٌ إلى السَّواد، وهو يَغشَى جلدةَ الوَجهِ مِن شدَّةِ البؤسِ والشَّقاءِ والخوف، وفي هذا المعنى تجمُّعٌ يجعل الإنسانَ في ضيقٍ شديد[8].

ويُفَرَّق بين الغَبَرةِ والقَتَرة بأنَّ القَتَرةَ ما ارتفعَ من الغُبار فلحِق بالسَّماءِ ورفعَته الرِّيح، والغَبَرةَ ما كان أسفلَ في الأرض[9].

ويتبيَّن ممّا سبقَ أنَّ الدُّخانَ أعمُّ من الغبار والقَتَر؛ لأنَّه مشتملٌ

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 98، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 656.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 13.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 13.
(4) ابن فارس، المقاييس: (دخن).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 286، و24/ 246.
(6) الراغب، المفردات: (غبر).
(7) ابن فارس، المقاييس: (قتر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 147، وحسن عز الدين الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (قتر).
(9) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 127، والبغوي، معالم التنزيل: 8/ 340.

عليهما؛ لذا أوثِرَ لفظُه دونهما في قول الله ﷻ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾؛ ولأنَّ الدُّخان في حقيقته يدلُّ على التهابِ النّار الظّاهِر في أصلِه الذي تقدَّم ذكرُه، فترتَّب على ذلك كلِّه أنَّ فيه ما يزيد الدَّلالةَ على شِدَّةِ العذاب وإيلامِه.

الغشيان والتَّغطية والإحاطة:

المعنى المحوريّ لجذر الغشيان: تَغَطِّي الشيء بكثيفٍ يعمُّه[1]، وأنَّه تغطيةٌ متمكِّنة[2]، ويدلُّ على ذلك أنَّ الغَشْواءَ من المَعز: التي يَغشَى وجهها كلَّه بياض، وأنَّ القيامةَ سُمِّيت بالغاشية لأنَّها تَغشى الخَلْقَ بأفزاعِها وأهوالِها[3]، وقولُ الله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ [الليل: 1]؛ أي: يغشى كلَّ ما يواريه بظلامه[4]، أو يعمّ الخلْقَ بظلامه[5].

الغشيان يكون بما يعمّ، والتَّغطية قد تكون بما لا يعمّ، والإحاطة مِن الاستدارة حول الشَّيء

أمّا التَّغطية فالمعنى المحوريّ لجذرها: سترٌ بما هو كالغِشاء الكثيف عريضًا[6]، وليس في ذلك ما يستلزم أن تكون التَّغطيةُ بما يعمُّ الشيءَ المغطَّى كما في المعنى المحوريّ الخاصّ بجذر الغشيان، ويدلُّ على ذلك أنَّ الغاطِيةَ: هي الكَرْمة كثيرة الأغصان[7]، والأغصان الكثيرة لا تُغَطِّي الكَرْمَةَ كلَّها.

وأمّا المعنى المحوريّ لجذر الإحاطة: فهو الاستدارةُ حول الشيء[8]؛ فالحَوْط: شيءٌ مستديرٌ من فضَّةٍ تُعَلِّقه المرأةُ على جبينها[9]، والحائط: هو الجدار الذي يحوط بالمكان[10]، وأوثِر لفظُ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غشو - غشي).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 294.
(3) ابن منظور، اللسان: (غشو - غشي).
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 761، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 317.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 286، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 926.
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غطو - غطي).
(7) الأزهري، التهذيب: (غطي).
(8) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حوط).
(9) ابن فارس: المقاييس: (حوط).
(10) الراغب، المفردات: (حيط).

الغشيان دون التغطية والإحاطة في قول الله ﷻ: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ لأنَّ هذا الدُّخان الذي هو عذابٌ للمشركين يعمّهم جميعًا[1]، ولأنَّ إتيانَ السَّماء بدخَان دلَّ على العُلوّ، وعندما يغشَى الشيءُ شيئًا فإنَّه يغشاه مِن أعلاه.

الكشف والإزالة:

يدلُّ الأصل (زَوَلَ) على تنحِّي الشيء عن مكانه؛ يقال: زالتِ الشمسُ عن كبدِ السَّماء، وأزلت الشيءَ عن المكان، أي: نحَّيته[2]، أمّا الكشف فأصله: رَفع الشيء عمّا يواريه ويغطِّيه[3]، أو إزالة الغطاء ونحوه عن الشيء[4]؛ يقال: كشفتُ الثَّوبَ[5].

أصلُ الكشف رَفعُ الشَّيء عمّا يغطِّيه، وأصلُ الإزالة تَنحيةُ الشَّيء عن مكانِه

وأوثِرَ لفظُ الكشف دون الإزالة في قول الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾؛ لمناسبة لفظ الغشيان في قول الله ﷻ: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وذلك لِما ذُكِر في أصلِ الكَشف.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 288.
(2) ابن فارس، المقاييس: (زول).
(3) ابن منظور، اللسان: (كشف).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كشف).
(5) ابن فارس، المقاييس: (كشف).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"